تقديم

أ. د. هوگر طاهر توفيق

أ. م. د. نزار أيوب حسن

هناك مقولة منتشرة في الأوساط الأكاديمية والعامة بأنه "لم يكن للكُرد دولة في التاريخ"، أو أن الدول والإمارات الكُردية في العصور السابقة كانت أشباه دول فاقدة لقرارها المركزي، انتشرت هذه الفكرة بقوة خلال عصر ظهور الدول القومية في القرنين التاسع عشر والعشرين؛ نظراً لعدم تمكن الكُرد من تأسيس دولتهم القومية على أرضهم التاريخية "كُردستان".

استناداً على هذه الفكرة والاتجاه التاريخي فطن مركز زاخو للدراسات الكُردية الى عقد مؤتمره السابع حول موضوع "الدول والإمارات الكُردية في العصرين الوسيط والحديث"، بهدف الغور في حياتها وحضارتها وتأثيراتها. وأدناه ملخصاً تاريخياً عن تلك الدول والإمارات الكُردية التي كانت جغرافية كُردستان متنفساً ومسرحاً لها:

-١-

الدويلات الكُردية في العصر الوسيط الإسلامي

ظهرت في عصر الخلافة العباسية خمس دويلات كُردية كانت تتمتع باستقلال ذاتي في إدارة شؤونها الداخلية والخارجية، وأدت دوراً سياسياً مهماً في أحداث كُردستان خلال تلك المدة، وهي:

١. الدويلة الروادية (٢٣٠-٤٤٦هـ/٨٤٤-١٠٥٤م) في أذربيجان بشرق كُردستان التي عرفت أنها أقدم دويلة كُردية في المشرق الإسلامي، وكانت عاصمتها مدينة تبريز. يقول المؤرخ ابن الأثير عنهم:" ظهرت الأكراد الروادية في أذربيجان وهم من أشراف الأكراد". ومن أبرز أمرائهم " محمد بن حسين الروادي الكُردي، ديسم بن إبراهيم الكُردي الروادي، ابي الهيجاء بن مملان".

٢. الدويلة الشدادية الكُردية في اران-يريفان- بشمال شرق كُردستان (٣٤٠-٤٤٦هـ/٩٥١-١٠٥٤م)، إذ استطاع الكُرد الشدادية أن يقيموا لهم دويلة مستقلة في منطقة اران وهي إحدى المقاطعات التابعة لإقليم أذربيجان وأرمينيا، ومن أبرز أمرائهم "محمد بن شداد الكُردي، مرزبان بن محمد الكُردي، أبو الحسن علي بن موسى لشكري".

٣. الدويلة الحسنوية الكُردية في همدان (٣٣٠-٤٠١هـ/٩٤١-١٠١٥م) في شرق كُردستان ومن أبرز أمرائهم" حسين البر زكاني، حسنوية بن حسين البر زكاني الكُردي، بدر بن حسنويه".

٤. الدويلة العيارية (العنازية) (٣٨٠-٤٤٦هـ/٩٩٠-١٠٥٤م) في مدينة حلوان-زهاو بالقرب من مدن (جلولاء، وخانقين، وقصر شرين) في جنوب كُردستان. ومن أمرائهم" أبو الفتح محمد بن عياز، أبو الشوك-الشوق بن أبو الفتح محمد بن عياز".

٥. الدويلة الدوستكية-المروانية الكُردية (٣٧٣-٤٤٦هـ/٩٨٣-١٠٥٤م) في دياربكر بشمال كُردستان وكانت هناك مدن كثيرة تابعة لها منها(اسعرد-خيزان-حصن الزوق-حصن كيفا-ارزن-فاقان-ديار ربيعة-جزيرة ابن عمر-ميافارقين-رأس العين-ملازكُرد-ارجيش-نصيبين...الخ). يعود الفضل في تأسيس هذه الدولة إلى(باد بن دوستك الكُردي) زعيم الكُرد الحميدية وكنيته (أبو عبدالله أبو شجاع)، وقد قال عنه المؤرخ ابن الأثير :"كان يغزو كثيراً بثغور دياربكر، وكان عظيم الخلقة، وله بأس وشدة...كان جواداً يذبح الغنم الذي يطعم به الناس فظهر عليه اسم الجواد واجتمع عليه الناس، وكلما حصل له شيء من الغنيمة أخرجه[أي وزعه على أصحابه] فكثر أصحابه... وقد ساعده على نجاح حكمه...حب قومه من الأكراد له وعدله..."، وقال عنه المؤرخ الفارقي:"كان جباراً من الرجال". ومن أمرائهم: "باد بن دوستك، أبو علي حسن بن مروان الكُردي، أبو النصر احمد بن مروان الكُردي (نصر الدولة)".

اسقطت أغلب هذه الدويلات الكُردية على اليد السلاجقة الأتراك عند اجتياحهم للعالم الإسلامي في أواخر عصر الخلافة العباسية.

-٢-

الإمارات الكُردية في العصر الحديث

تعرضت كُردستان في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين إلى غزوات المغول التتار، وقد تم تدمير أغلب المناطق الكُردية على يد تيمورلنك (١٣٣٦-١٤٠٤م) الذي أخضع العديد من الإمارات الكُردية لحكمه. أعقب الغزو المغولي ظهور دولتين تركمانيتين حكمتا كُردستان وهي دولة "القرة قوينلو" أصحاب الخروف الأسود وكانت عاصمتها تبريز وحكمت خلال المدة (١٣٨٠-١٤٦٨م)، ودولة "الاق قوينلو" أصحاب الخروف البيض" وكانت عاصمتها "دياربكر" وحكمت خلال المدة (١٣٧٨-١٥٠٨م). ثم خضعت كُردستان بعد ذلك لحكم الامبراطورية الفارسية الصفوية التي

أخضعت الجزء الشرقي من كُردستان والامبراطورية العثمانية التي تحكمت في الجزء الأكبر من كُردستان. فكانت من أبرز نتائج المعركة الفاصلة بين الإمبراطوريتين في سهل جالديران بشمال كُردستان عام ١٥١٤ هو تقسيم كُردستان الى جزئين بين الدولتين الصفوية الإيرانية والعثمانية وقد استمر هذا التقسيم حتى القرن العشرين.

خلال السنوات الأولى من العصر الحديث وحسب المؤرخ والأمير الكُردي شرفخان البدليسي حكمت كُردستان في القرن السادس عشر في الجزئين الصفوي والعثماني ما مجموعه (٤٨) إمارة كُردية، كما أوردها في كتابه الشهير الشرفنامة والذي انتهى من تأليفه عام ١٥٩٦-١٥٩٧، لعل أبرزها تلك التي ذكرها في الفصل الثاني من كتابه وهي الإمارات التي قال عنها "في ذكر عظماء حكام كُردستان الذين وإن لم يكونوا قد ادعوا السلطنة والاستقلال إلا أنهم انفردوا أحياناً بالخطبة وضرب النقود باسمهم" وهذه الإمارات هي:" أردلان، هكاري، العمادية، الجزيرة، حصنكيف".

كانت لهذه الإمارات الكلمة العليا في الحياة السياسية في كُردستان من القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر، ولعل أبرز ما ميز العديد من تلك الإمارات هي حضارتها التي كانت تضاهي بها العديد من الدول في ذلك الوقت ومنها حضارة إمارة بدليس كما يرويها الرحالة التركي اوليا جلبي في رحلته إلى هذه الإمارة في عام ١٦٥٥ عندما كان يحكمها الأمير عبدال خان، فقد ذكر اوليا جلبي العديد من المرافق الحضارية لهذه الإمارة منها: القصور، الجسور، الينابع، والحلي، والمكتبات، والأسواق...الخ، حتى أنه قال جملة مشهورة في حقها وهي:" فهذا أنا السائح الذي أقوم بالسياحة لمدة أربعين سنة لم أشاهد مثل هذه الأشياء في أي مكان آخر".

موضوع الحضارة الكُردية وهو الأكثر أهمية، نظراً لكونه غير مبحوث في العديد من جوانبه، وهو أن حضارة هذه الدول والإمارات الكُردية تعدّ موضوعاً هامشياً إلى الآن عند الخوض في تاريخ الحضارة الكُردية. فالحضارة تلقي الضوء على المستوى الفكري والعمراني التي وصلت إليها أي أمة، وتقاس الأمم والشعوب بمدى تطور حضاراتها عبر التاريخ وبالتالي مستوى تفهمها لواقعها الحالي وما قدمته للإنسانية، دون أدنى شك كان للكُرد حضارتهم خلال ذلك العصر، فما تراه العين من آثار حضارية هي كثيرة ربما لا يمكن حصرها وكتابتها، فكُردستان تقع على جبل من الآثار التاريخية، إلا أن ما يؤخذ على حضارة الكُرد حينذاك أنه لم يتم تدوين آثارها بالشكل الذي يعبّر عنها ويكشف عن حقيقتها ودورها التاريخي سواء في كُردستان أم في خارجها.

المهم في الأمر بأن هذه الإمارات الكُردية وعلى الرغم من تقلص عددها واختفاء الكثير منها إلا أن العديد من هذه الإمارات ظلت قائمة تحكم مناطقها حتى منتصف القرن التاسع.

-٣-

سقوط الإمارات الكُردية في منتصف القرن التاسع عشر

شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر وقوع ثلاث حركات كبرى قادها الأمراء الكُرد ضد الدولة العثمانية، كان هدف تلك الإمارات توسيع حدودها الجغرافية والحصول على مزيد من الاستقلالية في قراراتها.

الحركة الأولى: هي تلك التي قادها الأمير عبد الرحمن باشا بابانى (١٧٨٩-١٨١٣)، إذ يعد من أقوى الأمراء الذين حكموا إمارة بابان طيلة عمرها الطويل الذي امتد لحوالي خمسة قرون، تولى الإمارة في سنة ١٧٨٩ وعزل من منصبه لأكثر من ست مرات نتيجة للخلافات داخل الأسرة الأميرية وتدخل الدولتان العثمانية والإيرانية في شؤونها. وصلت قوته ما بين سنوات ١٨١٠-١٨١٢ إلى أن طلب منه أن يتولى ولاية بغداد ولكنه رفض، توفي عبد الرحمن بابان سنة ١٨١٣ بشكل مفاجئ. دخلت الإمارة بعده في عهد ضعف فقد تولى سدة الحكم فيها أمراء ضعفاء كما أن بروز الإمارة السورانية في عهد الأمير محمد السوراني قد أثر عليهم كثيراً، وانتهت حكم هذه الإمارة في سنة ١٨٥١.

يقول الشاعر الكُردي الشيخ رضا الطالباني (١٨٣٥-١٩٠٩) عن هذه الإمارة:

له بيرم دێ سولەيمانى كه دار و مولكى بابان بو
نه مەحكوومى عەجەم نه سوخرەكێشى ئالێ عوسمان بوو

أي ما معناه باللغة العربية:

أتذكر بأن السليمانية كانت مركز[حكم] وملك بابان
لم تكن تحكمها العجم ولم تكن تابعة لآل عثمان

أما الحركة الثانية: فهي تلك التي قادها الأمير محمد السوراني (ميرێ گەورە-ميرێ كوره) (١٨١٣-١٨٣٦) في البداية عمل على تصنيع السلاح ولاسيّما صناعة المدافع، وبعد أن وحد جبهته الداخلية قاد حرباً على الدولة العثمانية وتمكن من ضم أغلب أراضي إمارات بابان وبهدينان وبوتان وضم ماردين في أيار ١٩٣٣، وتذكر عدد من المصادر التاريخية أن جيشه بلغ في تلك الأثناء (١٣٠) ألف مقاتل. بعد تلك الانتصارات الكبيرة قادت الدولة العثمانية حملة كبيرة بقيادة رشيد محمد باشا على الأمير محمد بك ونتيجة لعدم تكافئ القوتان تمكن الجيش العثماني من القضاء على الأمير محمد وإمارته سوران بحلول سنة ١٨٣٦.

لقد كتب القنصل البريطاني جيمس برانت عن محمد الرواندوزي في سنة ١٨٣٥:" تساءلت كيف وصل إلى هذه الدرجة من الصفاقة في مقاومة رشيد محمد باشا، الذي كان مزوداً بالسلطة الممنوحة له من السلطان. فرد الحاج [رجل من الكُرد] بقوله: إنه لا هو ولا آباؤه قد خضعوا

في يوم من الأيام للباشوات أو دفعوا ضرائب للسلطان وأنه لم يستطع أن يفهم لماذا ينبغي إجباره على ذلك الآن، وهو لذلك يقاوم قدر استطاعته".

أما الحركة الثالثة: فهي تلك التي قادها الأمير بدرخان (١٨٣٨-١٨٤٧) أمير إمارة بوتان ضد الدولة العثمانية في أربعينات القرن التاسع عشر، فبعد أن تمكن من توحيد أغلب الإمارات الكُردية في شمال كُردستان ضمن حلف كُردي وظهرت نواياه في مزيد من التوسع والاستقلالية، جردت الدولة العثمانية حملة كبيرة عليه بقيادة (عثمان باشا) في أيار ١٨٤٧ وبلغ عدد قواته (٢٥) ألف مقاتل، أما قوات بدرخان بك فقد بلغت (١٥-١٧) ألف مقاتل، لم يتمكن بدرخان بك من الصمود أمام الهجمات العثمانية القوية، فاضطر إلى الاستسلام للجيش العثماني في ٢٠ تموز ١٨٤٧ والذي قام بدوره بإرساله إلى اسطنبول ثم تم نفيه إلى جزيرة كريت بعد ذلك استقر في دمشق حتى وفاته في عام ١٨٦٨.

بهذا الحدث الكبير انتهى العصر الإماراتي في كُردستان وخضعت كُردستان بصورة مباشرة الى حكم الدولة العثمانية، وأخيراً يمكن تلخيص أبرز الأسباب التي أدت الى سقوط الإمارات الكُردية، وهي:

١. ضعف عدد الإمارات منذ أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.
٢. الصراعات الداخلية داخل الأسر الأميرية جعلت الواحد يتربص بالآخر.
٣. صراع الإمارات الكُردية فيما بينها أدت بالنهاية إلى إضعافها جميعها.
٤. تأثرت الإمارات الكُردية بالسياسية الدولية آنذاك حيث تحولت كُردستان إلى ساحة للصراع بين الدول الأوربية لاسيّما روسيا التي وصلت إلى حدود كُردستان الشمالية وبريطانيا التي كانت تدافع عن مصالحها في الدولة العثمانية.
٥. نتيجة ضغط الدول الكبرى على الدولة العثمانية عمدت إلى تطبيق سياسة مركزة الدولة العثمانية والتي كانت من أبرز نتائجها سقوط جميع الإمارات الكُردية في كُردستان.

المهم في هذا العرض التاريخي المقتضب ليس بيان تاريخ هذه الدول والإمارات الكُردية، بقدر التأكيد على أن أرض الكُرد "كُردستان" كانت في أيدي الكُرد ويحكمها الكُرد وأسسوا عليها دول وإمارات، حتى وإن كانت تابعة لامبراطورية أو دولة كبرى مثل الدولة العباسية أو الصفوية الإيرانية أو العثمانية، فالكُرد وعلى مر العصور كانوا أصحاب هذه الأرض التي سميت في المصادر التاريخية على اسمهم "كُردستان" وهذا هو بيت القصيد.